قضايا اللّسانيات المعاصرة في التراث اللّغوي العربي

عيسى شاغة

قسم اللّغة والأدب العربيّ ، جامعة البويرة

a.chagha@univ-bouira.dz

تاريخ الإرسال: 2019/12/07 تاريخ القبول: 2020/06/06. تاريخ النّشر: 2020/06/15

الملخص:

لم يكتف اللّغويون العرب القدماء بدراسة لغتهم دراسة سطحية لعلاج مشكلة اللحن وانحراف الذوق ، بل إنهم قد أبدعوا في بحوثهم واستقصوا اللغة من كل جوانبها فخلّفوا لنا تراثا لغويا على درجة عالية من الدقة العلمية والمنهجية يضاهي من حيث قيمته ومكانته الإنتاج اللساني الغربي الحديث ، بل ويتفوق عليه في بعض الأحيان.

وفي هذا السيّاق جاء هذا البحث ليكشف عن أهمّ القضايا اللّسانيّة الّتي تطرّق إليها اللغويون العرب القدماء ، والتي كانت نتائج دراستها تتفق مع ما توصلت إليه اللسانيات المعاصرة ، ومن أهمها تعريفهم للغة ، واتباعهم المنهج الوصفي في دراستها ، وكذا دراستهم قضية الاكتساب اللغوي وتعلم اللغة ، ودور السياق في فهم معاني الكلام ، واعتباطية العلامة اللسانية ، وعلاقة اللغة بالمجتمع.

وقد انطلقت في هذا البحث من إشكالية مفادها: هل كانت القضايا اللسانية المعاصرة تدخل في صلب اهتمام اللغويين العرب القدماء ؟ وما مدى عمق معالجتهم إياها ؟ لأتوصل بعد البحث والتحري إلى تأكيد وجود تشابه كبير بين اللغويين العرب ونظرائهم في اللسانيات الغربية المعاصرة في طريقة تناولهم للعديد من القضايا اللسانية.

الكلمات المفاتيح: قضايا اللسانيات ، اللسانيات العربية ، التراث اللغوي العربي ، البحث اللساني.

Issues of contemporary linguistics in the Arabic linguistic heritage

Abstract: The ancient Arab linguists not only studied their language superficially to remedy the problem of linguistic error and deviation of taste, but they have excelled in their research and surveyed the language in all its

aspects, leaving us with a linguistic heritage with a high degree of scientific accuracy and methodology equal in terms of its value and status linguistic production. Modern Western, and sometimes even outperformed. In this context, this research came to reveal the most important linguistic issues addressed by the ancient Arab linguists, whose results were consistent with the findings of contemporary linguistics, the most important of which is their definition of language, and their descriptive approach in their study, as well as their study of the issue of linguistic acquisition and learning Language, the role of context in understanding the meanings of speech, the arbitrariness of the tongue mark, and the relationship of language to society .This research was based on the following problem: were contemporary linguistic issues at the heart of the interest of ancient Arab linguists? And how deep is their treatment? After research and investigation, I can confirm that there is a great similarity between Arab linguists and their counterparts in contemporary Western linguistics in the way they deal with many linguistic issues

Key words: Linguistics, Arabic linguistics, Arabic linguistic heritage, linguistic research.

1- مقدّمة:

لقد هب العرب والمسلمون قديمًا إلى دراسة لغتهم بعد أنْ استدعت الحاجة إلى ذلك ، وتهيأت لهم ظروف البحث والتأليف. فهم لم يتوقّفوا عند الملاحظات اللغويّة والتعليقات الشكليّة الخاطفة والموجزة ، ولم يكتفوا بالتنبيه على الأغلاط وتصحيحها ، وعقد المجالس العلمية لتفسير النصوص المستغلقة على الناس فحسب ، بل تجاوزوا ذلك إلى تدوين العلوم اللغويّة في مؤلفات ليقرأها الناس ، ثم صياغة أسس النظريّة اللغويّة العربيّة ، بضبط قواعد اللغة ، وتفريع العلوم اللغويّة التي يعنى كل واحد منها بجانب خاص من اللغة ، ووضع مصطلحات لهذه العلوم للتعبير عن القضايا اللغويّة ، فدخلت اللسانيات العربيّة بذلك مرحلة التطور المتسارع الذي كانت انطلاقته الفعلية في القرن الثاني للهجرة ، ثم استمر إلى القرون اللاحقة. ويمكن أنْ نتلمس مظاهر هذا التطور في مناح شتى من الدرس اللغوي العربي.

وقد حاول بعض المستشرقين والدارسين العرب المحدثين التقليل من شأن ما أنتجه اللغويون العرب القدماء ، وتصويره في صورة البحث اللغويّ المحليّ أو المحدود والضيق الذي

لا يتجاوز حدود اللغة العربيّة ، والذي لم يدرس اللغة بصفتها ظاهرة إنسانيّة يتواصل بها البشر فيما بينهم مثلما فعلت الدراسات اللسانيّة الحديثة.

ولكن القراءة المتفحصة في هذا التراث اللغويّ الممتد عبر قرون من الإنتاج العلمي المتقن والجاد تثبت لنا أنّ كثيرا من الأفكار اللغويّة والقضايا التي عالجتها المدارس والنظريات اللسانيات الحديثة كان الدارسون العرب قد تطرقوا إليها في مباحثهم ، وعالجوها في إطار الدراسة اللسانيّة الواسعة لا في حدود اللغة العربيّة فحسب.

يقول عبد السلام المسدي: « العرب بحكم مميزات حضارتهم وبحكم اندراج نصهم الديني في صلب هذه المميزات قد دعوا إلى تفكر اللغة في نظامها وقدسيتها ومراتب إعجازها ، فأفضى بهم النظر لا إلى درس شموليّ كونيّ للغة فحسب ، بل قادهم النّظر أيضًا إلى الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة اللسانية ، مما لم تهتد إليه البشرية إلا مؤخرًا بفضل ازدهار علوم اللسان منذ مطلع القرن العشرين ». [1]

وبناء على ذلك سنحاول في هذه البحث رصد أهمّ هذه الأفكار اللسانيّة في التراث اللغويّ العربيّ. انطلاقًا من الإشكاليّة الآتيّة: هل كانت القضايا اللسانية المعاصرة تدخل في صلب اهتمام اللغويّين العرب القدماء؟ وما مدى عمق معالجتهم لها ؟

وفي هذا السّياق قمنا برصد عيّنة من القضايا اللسانيّة المعاصرة التي شغلت بال اللغويّين العرب القدماء ، وتطرّقوا إليها في مباحثهم ، نذكر منها:

2. المفاهيم اللسانية المعاصرة في التراث العربي.

1/2. مفهوم اللغة في التراث اللساني العربي.

عرّف اللغويون العرب القدماء اللّغة ، ووضّحوا ماهيّتها في تعاريف لا تقل شأنًا عن تعريفات اللسانيات الحديثة ، ولعلّ أشهرها تعريف ابن جني (ت 395 ه) الذي جاء فيه: « أمّا حدها فإنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ».[2] ويمكن أنْ نستنتج من هذا التعريف أنّ:

- اللغة عبارة عن أصوات ، فاللغة منطوقة وليست مكتوبة.
- واللغة وسيلة يستعملها الناس للتعبير عن أغراضهم ، أي: أنّ وظيفتها الأساسية هي التواصل.
- واللغات تتنوع بتنوع الأقوام ، فلكلّ أمّة لغتها الخاصة.

ويعرّف ابن خلدون (ت 808 هـ) اللّغة بقوله: « اعلم أنّ اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسانيّ ناشئ عن القصد بإفادة الكلام ، فلابد أنْ تصير ملكةً متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان ، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم».[3] وقد أشار تعريف ابن خلدون هذا إلى جملة من الأمور وهي: [4]

- **اللغة عبارة المتكلم عن مقصوده**: أيْ أنّها وسيلة يستخدمها المتكلّم للتعبير عن مقصوده وأفكاره.
- **تلك العبارة فعل لسانيّ ناشئ عن القصد بإفادة الكلام**: أيْ: أنّ اللغة فعل إنشائي يؤديه الإنسان عبر اللسان ، وهذا الفعل نابع عن إرادة فكرية ، وهي القصد بإفادة الكلام.
- **ملكة متقررة في العضو**: أيْ: أنّ مقدرة الإنسان على التكلم وراءها ملكة لسانية ، اكتسبها الإنسان ، وهي توجه عملية التكلم.
- **اللسان في كل أمة بحسب اصطلاحاتها**: أيْ: أنّ ملكة اللغة تظهر في كل أمة على شكل لغة خاصة بها.

ونحن نلاحظ بعد تأمّل تعريف اللغة عند ابن جني وابن خلدون أنّه يتّفق في كثير من جوانبه مع تعاريف اللغة في اللسانيات الحديثة ، والتي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: [5]

- **(أندريه مارتينيه- André Martinet)**: اللغة أداة تواصل تحلل وفقها خبرة الإنسان بصورة مختلفة في كل مجتمع إنساني عبر وحدات ، تشتمل على محتوى دلالي وعلى عبارة صوتية.
- **(أنطوان ميبه- Antoine Meillet)**: اللغة تنظيم متماسك مرتبط بوسائل التعبير المشتركة بين مجموعة متكلمين ، ولا وجود لهذا التنظيم خارج الأفراد الذين يتكلمون اللغة.
- **(إدوارد سابير- Edward Sapir)**: اللغة وسيلة لا غريزية خاصة بالإنسان ، يستعملها لإيصال الأفكار والمشاعر والرغبات عبر رموز يؤديها بصورة اختيارية وقصدية.

ولضيق المقام نكتفي بهذه التعاريف الثلاثة التي نلاحظ أنّها تتقاطع مع تعاريف اللسانيين العرب القدماء في بعض النقاط ، منها مثلا: اللغة عبارة عن أصوات ، واللغة وسيلة للتواصل بين الناس ، واللغة تتنوع بتنوع الأقوام ، اللغة ملكة مكتسبة ، وهي عملية مقصودة لذاتها.

2/2. اعتباطية العلامة اللسانية.

تحدثت اللسانيات الحديثة منذ ظهور محاضرات دوسوسير على العلاقة بين الدّال والمدلول ؛ حيث أكدت على عدم وجود علاقة منطقيّة إلزاميّة بينهما ، فالعلاقة بينهما اعتباطية ؛ حيث كان بالإمكان تسمية الشجرة طريقا والعكس صحيح. وقد أشار إلى هذه الفكرة علماء العربية القدماء.[6]

ومن بينهم عبد القاهر الجرجاني الذي كان يفرق بين (حروف منظومة) و(كلم منظومة) ؛ حيث يرى أنّ « نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط ، وليس نظمها بمقتضىً عن معنى ، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أنْ يتحرى في نظمه لها ما تحراه ، فلو أنّ واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد. وأمّا نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس ، فهو إذًا نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النّظم الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق».[7]

ويفهم من كلام الجرجاني أنّ توالي الحروف أو ترتيبها رسمًا أو نطقًا يتمّ بطريقة اعتباطيّة لا دخل لعقل الإنسان فيها ، وليس هناك من علاقة منطقية إلزاميّة لتوالي هذه الحروف في الكلمة ، يقول عبد السلام المسدي: " أمّا الجرجاني فإنّه يتناول قضية الاعتباط في الحدث اللساني من زاوية اختباريّة وصفيّة ، ملحًا على أنّ اقتران أيّ لفظ بمعناه لمّا كان في منشئه تواطؤًا محضًا ، فإنّه لا يقوم بين الدال والمدلول من الاقتضاء ما يمنع تصوّر أي دال آخر لنفس المدلول ، كما يمكن أنْ يقوم مقام الدال الأول ، وبنفس الانتهاج الاستدلالي لا يمنع تصوّر أيّ مدلول آخر لأيّ دال من دوال اللغة كان يمكن أنْ يكون كامنًا وراءه بدلا عنه ".[8]

وبهذا يكون الجرجاني وغيره من علماء العربيّة قد سبقوا (**فرديناند دوسوسير- Ferdinand de Saussure**) إلى القول باعتباطيّة العلاقة بين دوال اللغة ومدلولاتها ، بل وشرحوا ذلك ووضحوه بطريقة توحي إلى إدراكهم العميق لهذه الظاهرة اللغوية.

3. مظاهر المناهج اللسانية المعاصرة في التراث اللغوي العربي.

1/3. المنهج الوصفي.

عرفت الدراسات اللغويّة مطلع القرن العشرين تحولا بارزا أدى إلى نشأة ما يعرف بالمنهج الوصفيّ ، الذي جاء كرد فعل على المناهج السائدة قبل القرن العشرين ، والتي أطلق عليها مصطلح (النّحو التقليديّ) ؛ حيث درج العلماء منذ دي سوسير على تتبّع نقائص هذا النّحو ونقاط ضعفه وقصوره. وتبعهم في ذلك بعض اللسانيين العرب المحدثين الذين ساروا على خطاهم ، فنقلوا عنهم تلك الانتقادات ووجّهوها إلى النحو العربيّ ، بدعوى أنّه نحو معياريّ بحت ، متغافلين عن كثير من الجوانب الوصفيّة فيه ، والتي لا يخطئها المتتبع المنصف.

وسنحاول فيما يلي تلخيص أهم مظاهر المنهج الوصفيّ في النحو العربيّ:

- ✓ اعتمد النحاة واللغويون العرب القدماء في جمع المادة اللغويّة على منهج خاص يقوم على الاتصال المباشر بالاستعمال اللغويّ ، فقد كانوا يذهبون إلى البادية ويشافهون الأعراب ، لينقلوا عنهم المادة اللغويّة. والقصص على ذلك كثيرة في كتب الطبقات والتراجم ، وقد استمر هذا الوضع إلى غاية القرن الرابع الهجريّ ، وهو عصر ابن جني ، الذي كان يجمع اللغة أحيانا عن طريق الاتصال المباشر بالمتكلمين الفصحاء. وفي هذا السّياق يشير عبده الراجحي إلى أنّ « الاتصال المباشر بالواقع اللغوي أصل من أصول النحو الوصفيّ ، وقد كان أيضا أصلا من أصول النّحو العربيّ نتيجة لطبيعة الحياة العربيّة ، ولطبيعة الحركة العلميّة التي نشأت في مناخ عام أساسه النقل والرواية ، وقد أدى هذا الاتصال أنْ يكون في النّحو اتجاه وصفيّ في تناول كثير من ظواهر اللغة ». [(9)]
- ✓ أول عمل لغويّ قام به أبو الأسود الدؤلي (ت 69 هـ) - وهو ضبط القرآن الكريم بالنقط المسمى (نقط الإعراب) - كان في الحقيقة عملا وصفيًا محضًا ؛ لأنّه يقوم على الملاحظة المباشرة لقراءة النّص ؛ حيث اجتمع في هذا العمل قارئ يقرأ وكاتب يلاحظ حركة الشفتين ويسجل ما يلاحظه ، وتضمّن هذا العمل كذلك وصفًا لحركة الشفتين وكيفية حدوث الحركات الإعرابيّة التي صارت أساس المصطلحات الإعرابيّة في النّحو العربيّ. [(10)]
- ✓ لم يغفل النّحاة اللهجات العربيّة ؛ حيث إنّ كتبهم تضمنت مادة لا بأس بها تتبع الاستعمال اللهجي ، بل وتأخذ ببعض اللهجات وتفضلها في بعض الأحيان. كما أنهم يفسرون بعض الظواهر اللغويّة بكثرة الاستعمال في كلام العرب. [(11)]
- ✓ إنّ الفكر الوصفيّ « البنيويّ الذي يرى اللغة بنية منظمة متكاملة ، فيعنى بتصريف

الكلمات وصلاتها الاشتقاقية وصورها الإسنادية والإضافية ، من حيث الفصل والوصل مع إبراز الطابع العضوي لأنماط اللغة ، وما يترتب على ذلك من فكرة المعاقبة في الموقع ، ثم الربط بين الصورة والوظيفة التي تؤديها الصورة في النظام ، وكل هذه الأمور والمسائل المختلفة حفلت بها كتب النحو العربيّ وتآليفه ، ولم تكن خافية على أذهان النحاة العرب ».[12]

- ✓ إنّ الدّرس الصوتيّ العربيّ كان يقوم في أساسه على المنهج الوصفيّ ؛ حيث وصف علماء العربية مخارج الأصوات وصفاتها ، وبينوا كيفية نطقها ، كما وصفوا جهاز النطق البشري وصفًا دقيقًا لا يختلف كثيرا عن وصف المحدثين له ، كما وصفوا القوانين الصوتيّة التي تتحكم في تطور الأصوات ، وبالجملة فقد اعتمد الدارسون العرب القدامى في دراستهم للأصوات منهجًا وصفيًّا خاليًا من الافتراضات الفلسفيّة ، أساسه الملاحظة الذاتية وتذوّق الأصوات. وهذا ما دفع بعض المستشرقين واللسانيين الغرب إلى الاعتراف بتفوق العرب فى الدراسات الصوتيّة ؛ حيث يقول المستشرق الألماني (قوتهلف برجشتراسر- **Gotthelf Bergsträsser**): « لم يسبق الغربيّين في هذا العلم إلا قومان من أقوام الشرق ، وهما أهل الهند ، والعرب».[13] ويقول اللسانيّ الإنجليزيّ (جون روبرت فيرث - **John Rupert Firth**): « إنّ علم الأصوات قد نما وشبّ في خدمة لغتين مقدستين هما: السنسكريتيّة والعربيّة».[14]

فهذه إذًا بعض الجوانب الوصفيّة في النّحو العربيّ ، وغيرها كثير ويحتاج إلى تفصيل يخرج بنا عما نحن بصدده من تتبع أهم الأفكار اللسانية في التراث اللغويّ العربيّ.

2/3. المنهج التحويلي التوليدي.

أحصى الدارسون المحدثون العديد من النقاط التي تتقاطع فيها اللسانيات العربيّة مع النّحو التحويليّ التوليديّ ، بل قد أشاروا إلى وجود تقارب شديد بينهما ؛ « لأنّ هناك أصولا مشتركة بين المنهجين ، أهمّها صدور النّحو العربيّ في معضمه عن أساس عقلي».[15] وهو الأساس نفسه الذي يقوم عليه النّحو التحويليّ التوليديّ.

ولعلّ من بين الأمثلة على ذلك التقارب ما نجده في مؤلفات أئمة النّحو العربيّ وعلى رأسهم سيبويه (ت 180 هـ) ، صاحب أوّل عمل نحويّ متكامل ؛ حيث ذكر في باب الاستقامة من الكلام والإحالة أنّ الكلام « منه مستقيم حسن ، ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب. فأمّا المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس ، وسآتيك غدا ، وأما المحال فأنْ تنقض أوّل كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدا ، وسآتيك أمس ، وأمّا

المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل ، وشربت ماء البحر ونحو ذلك ، وأمّا المستقيم القبيح كأنْ تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيدًا رأيت ، وكي زيد يأتيك وأشباه ذلك ، وأمّا المحال الكذب فأنْ تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس ».[16] ومرجع هذا التقسيم عنده إلى موافقة الكلام للقواعد النحويّة أو مخالفته ، وسلامة الدلالة أو فسادها ، وهو تقسيم يتفق مع تقسيم **(نعوم تشومسكي- Noam Chomsky)** للكلام إلى: كلام أصولي وكلام غير أصولي ، أو الجمل القواعدية وغير القواعدية أيْ المقبولة نحويًا وغير المقبولة.[17]

وقد كان النحاة واللغويون العرب يعتمدون في اختيار مادتهم اللغويّة على الحدس اللغويّ العربيّ الموثوق به ، أو ما يسمى بالسليقة العربيّة السليمة ، « وهو اعتماد على هذا العربيّ ومقدرته اللغوية الصحيحة ، تلك الكفاءة اللغوية ، التي تمثل المعرفة الضمنية لدى المتكلم بقواعد اللغة ، والتي تتيح له إنتاج الجمل على النحو الذي نجده عند تشومسكي ، وإن الاعتماد على نطق الأعراب البدو دون سواهم هو اعتماد على أدائهم الكلامي ، واعتداد بقواعد هذا الكلام المنطوق والأداء الفعلي الصحيح ، يأتي هذا الاعتماد متفقا مع ما حدده تشومسكي من قواعد الأداء اللغوي أو الكلام المنطوق ، الذي يأتي متفقا مع قواعد الكفاءة اللغوية أو مختلفا عنه ».[18]

ولعل أفكار نظرية النظم للجرجاني أقرب الأفكار اللسانية العربية إلى نظرية تشومسكي اللغوية ، وجوانب التشابه بينهما واضحة لمن أراد البحث في هذه القضية ؛ حيث إن حديث تشومسكي عن البنية العميقة والبنية السطحية كان قد سبقه إليه الجرجاني (ت 471 هـ) حين « فرّق بين النّظم والترتيب والبناء والتعليق ، فجعل نظم المعاني في النّفس ، وهو تماما البنية العميقة عند تشومسكي ، أمّا البناء فهو البنية السطحيّة الحاصلة بعد الترتيب بواسطة الكلمات ، كما أنّ التعليق هو الجانب الدلالي من هذه الكلمات التي في السياق».[19]

2/3. المنهج السياقي:

اهتمت اللسانيات الحديثة بالسياق وأولته عناية فائقة ، باعتباره يمثل عنصرًا فاعلا في توضيح الكلام ، بل في صحته والوصول به إلى درجة القبول في معناه ومبناه ، واللسانيون الغربيون يقسمونه على قسمين: أحدهما: السياق اللغوي أو سياق المقال ، والثاني: سياق الحال أو السياق غير اللغوي ؛ حيث يُقصد بالأوّل « وضع لبنات الكلام من حيث المواؤمة والتآلف أو اللزوم ، بالنظر فيما يسبقها ويلحقها من لبنات ».[20] ويُقصد بسياق الحال: جملة العناصر غير اللغويّة المكونة للموقف الكلامي من شخصية المتكلم

والسامع ، والعوامل الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغويّ لمن يشارك في الموقف ، وعلاقات الزمان والمكان وسائر الظروف المحيطة بالكلام ، والتي تسهم في تكوينه وتؤثر فيه.[21]

وقد كان الأنتربولوجي اللغوي **(مالينوفسكي- Bronisław Malinowski)** من أوائل من اهتم بالسياق في اللسانيات الغربية ، ومن بعده اللساني الإنجليزي (فيرث - **Firth**) ، الذي تُسمى نظريته بالمدرسة السياقية ؛ حيث حرص على تعميق البحث فيه والالتزام بتطبيقه في كل أعماله.[22]

وفي اللسانيات العربية القديمة نال السّياق بقسميه حظًا كبيرًا واهتماما بالغا من علماء العربية على اختلاف تخصصاتهم ؛ حيث تكلم عنه الأصوليون والمفسرون والبلاغيون والنحويون واللغويون وعلماء الحديث ، وتنبهوا إلى أثره في فهم المعنى ، فتجدهم ينظرون في الأحوال المصاحبة للكلام ، كمعرفة حال المتكلم أو السامع أو البيئة العامة أو سبب نزول الآية أو مناسبة القصيدة ، أو غير ذلك ، مما يُسمى بالعناصر غير اللغوية التي تساعد في الكشف عن المعنى المراد من النص.

وقد نبّه على أهمية السياق عز الدين بن عبد السلام (ت 660 هـ) الذي يقول: «السياق مرشد إلى تبيين المجملات ، وترجيح المحتملات ، وتقرير الواضحات ، وكل ذلك بعرف الاستعمال».[23] كما نبّه الزركشي (ت 794 هـ) إلى أنّ دلالة السياق تعين على المعنى عند الإشكال ، فهي « ترشد إلى تبيين المجمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة ، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غَلط في نظيره وغالط في مناظرته ».[24]

وتظهر كذلك مؤشرات الاهتمام بالسّياق في أقدم النصوص النّحويّة المدوّنة التي وصلتنا وهو كتاب سيبويه ، الذي يقول فيه: «... وذلك قولك: أتميميا مرة وقيسيا أخرى ؟ وإنّما هذا أنّك رأيت رجلا في حال تلوّن وتنقل فقلت: (أتميميا مرة وقيسيا أخرى ؟) ، كأنّك قلت: (أتحول تميميًا مرة وقيسيًا أخرى ؟) ، فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له ، وهو عندك في تلك الحال في تلون وتنقل ، وليس يسأله مسترشدا عن أمر هو جاهل به ليُفهمه إياه ويخبره عنه ، ولكنه وبّخه بذلك. وحدثنا بعض العرب أنّ رجلاً من بني أسد قال يوم جَبَلة واستقبله بعير فتطيّر منه ، فقال: يا بَني أسد أعور وذا ناب ؟ فلم يسترشدهم ليخبروه عن عوره وصحته ، ولكنه نبههم ، كأنّه قال: (أتستقبلون أعور وذا ناب ؟) والاستقبال في حال تنبيهه إياهم كان واقعًا كما كان التّلون والتنقل عندك ثابتين

في الحال الأولى ، وأراد أنْ يثبت لهم الأعور ليحذروه ».[25]

ويمكن أنْ نلاحظ في هذين المثالين اللذين ذكرهما سيبويه أنّهما قد تضمنا خطابا لا يمكن فهمه منعزلا عن سياقه الذي ورد فيه ، لذلك نقل سيبويه الأحوال المصاحبة لهذا الخطاب ، وحاول استعادة الجو النّفسي والاجتماعي الذي رافقه ، والذي سماه بـ (الحال) وراح يؤكد أهميته في فهم المعنى ، وأنّه بدونه قد يُفهم خلاف المقصود من الكلام.

وقد تنبه ابن جني إلى قضيّة في غاية الأهمية تتعلق بسياق الحال ، وهو أنّه لا يكفي أحيانا أنْ تُنقل إلينا ظروف الكلام وملابساته ، بل نحتاج إلى حضوره ومشاهدة ما يرافقه من أحوال حتى نستطيع فهمه على الوجه الأتم ، ففي ذلك وضوح الصورة ، وجلاء معاني الكلام ، فهو يقول: « فالغائب [يقصد سياق الحال] ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها ، وتضطر إلى معرفته من أغراضها وقصودها... ألا ترى إلى قوله:

تَقولُ ـ وَصَكَّتْ وَجْهَها بِيَمينِها ـ أَبعليَّ هذا بالرَّحى المُتَقاعسُ

فلو قال حاكيا عنها: أبعليّ هذا بالرّحى المتقاعس ؟ من غير أنْ يذكر صكّ الوجه ، لأعلمنا بذلك أنّها كانت متعجبة منكرة ، لكنه لما حكى الحال فقال: (وصكّت وجهها) عُلم بذلك قوة إنكارها ، وتعاظم الصورة لها ، هذا مع أنّك سامع لحكاية الحال ، غير مشاهد لها ، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ، ولِعِظَم الحال في نفس تلك المرأة أبين ، وقد قيل: (ليس المخبَر كالمُعاين)... وليست كل حكاية تُروى لنا ، ولا كل خبر يُنقل إلينا يُشفع به شرح الأحوال التابعة له ، المقترنة به. نعم ولو نُقل إلينا لم نُفدْ بسماعها ما كنّا نفيده لو حضرناها... وعلى ذلك قالوا: (ربّ إشارة أبلغ من عبارة)... وقال لي بعض مشايخنا رحمه الله: أنا لا أحسن أنْ أكلّم إنسانا في الظلمة ».[26]

4. قضايا اللسانيات التطبيقية في التراث اللغوي العربي.

1/4. الاكتساب اللّغوي:

لم يكن البحث في اكتساب اللغة عند الطفل غائبا عن اهتمامات اللسانيين العرب القدماء ، فهذا ابن فارس (ت 395 هـ) يعالج المسألة في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة) فيقول: « تؤخذ اللغة اعتيادا كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما ، فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات ، وتؤخذ تلقنا من ملقن ».[27]

وليس يخفى هنا أنّ ابن فارس يفرّق جيدا بين اكتساب اللغة الذي سماه (اعتيادا)، وتعلم اللغة الذي سماه (تلقنا)، وهو الفرق نفسه الذي وضعته اللسانيات الحديثة بين الاكتساب الذي يتم بطريقة عفوية تلقائية في المحيط الأسريّ ، والتّعلم الذي يحتاج إلى معلم يتولى العملية ، وتخطيط يسبقها ، ولا يكون إلا بعد اكتساب اللغة الأم.

1/4. اللغة والمجتمع.

من فروع اللسانيات الغربية الحديثة ما يسمى بعلم الاجتماع اللغوي ، أو علم اللغة الاجتماعي ، وهو علم يهتم « بدراسة العلاقة بين اللغة ومختلف مظاهر حياة المجتمع ، وأثر حضارة المجتمع ونظامه وتاريخه وتركيبه وبيئته الجغرافية في اللغة وظواهرها المختلفة... وكان للعرب أيضا نصيب وافر في التعرض لمثل هذه الدراسات ، فتكلموا على أثر التركيب الاجتماعي للمجتمع الإسلامي على ظهور اللحن وتطور اللّغة ، كما بحثوا آثار الإسلام على اللغة وما جاء معه من ألفاظ جديدة ومعان جديدة ، فعقدوا في كتبهم فصولا للمُولّد ، والألفاظ الإسلامية الجديدة ، كما بحثوا الأثر الجغرافيّ في اللغة وسلامتها حين عرضوا لفصاحة اللهجات ، ودرجاتها ، ونقاوتها ، وذكروا عامل المجاورة الجغرافي في ذلك... وغير ذلك مما يدل على تنبههم إلى العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية ".[28]

5. خاتمة.

نخلص في الأخير إلى أنّ اللغويين العرب القدماء قد تناولوا بالدراسة والتحليل المستفيض أهمّ القضايا التي تطرق إليها البحث اللساني المعاصر ، ولم يقتصروا على دراستها في إطار اللغة العربية فحسب ، بل كانت دراستهم لسانية شمولية من منظور لساني عام ؛ بحيث تصدق نتائج بحثهم على كل اللغات الإنسانية مثلما فعل اللسانيون المحدثون ، فقد عرّفوا اللغة تعريفا يتفق في كثير من جوانبه مع ما توصلت إليه اللسانيات الحديثة ، وتبنوا المنهج الوصفي في دراستهم للغة ، انطلقا من استقراء المادة اللغوية ثم وصفها ووضع المصطلحات واستنباط القواعد من الشواهد ، وكذا الاهتمام بالجانب الصوتي في اللغة ، كما درسوا قضية الاكتساب اللغويّ ، وفرّقوا بينه وبين تعلم اللغة ، الذي يحتاج إلى تلقين منظم ، واهتموا بالسياق ، ونبّهوا إلى أهميته في فهم الكلام ، بالإضافة إلى دراستهم بعض قضايا اللغة والمجتمع ، واعتباطية العلاقة في العلامة اللسانية ، وغيرها من القضايا اللسانيّة التي لا يتسع المقام لبسط الحديث فيها ، وهذا كله إنّما يثبت مرة أخرى مدى إسهام اللسانيين العرب القدماء

في الحضارة الإنسانية ، ويدعونا إلى مزيد من العناية بهذه القضايا وإبرازها تأسيسا للمستقبل على أصول الماضي بما يسمح ببعث الجديد عبر إحياء المكتسب.

6. مصادر البحث ومراجعه:

- ابن جني أبو الفتح عثمان ، **الخصائص** ، تح: محمد علي النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 03 ، القاهرة ، 1986.
- ابن خلدون عبد الرحمن ، **المقدمة** ، تح: خليل شحادة ، دار الفكر ، د ط ، بيروت ، 2001.
- ابن عبد السلام عز الدين ، **الإمام في بيان أدلة الأحكام** ، تح: رضوان بن غربية ، دار البشائر الإسلامية ، ط 01 ، بيروت ، 1987.
- ابن فارس أبو الحسين أحمد ، **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها** ، تح: عمر فاروق الطباع ، مكتبة المعارف ، ط 01 ، بيروت ، 1993.
- آل ياسين محمد حسين ، **الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث** ، منشورات دار مكتبة الحياة ، ط 01 ،بيروت ، 1980.
- برجشتراسر قوتهلف، **التطور النحوي للغة العربية** ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 02 ، 1994.
- بشر كمال ، **التفكير اللغوي بين القديم والحديث** ، دار غريب ، دط ، القاهرة ، 2005.
- البهنساوي حسام ، **أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث** ، مكتبة الثقافة الدينية ، دط ، القاهرة ، 1994.
- الجرجاني عبد القاهر ، **دلائل الإعجاز في علم المعاني** ، تح: محمد رشيد رضا ، دار الكتب العلمية ، ط 01 ،بيروت ، 1988..
- الراجحي عبده ، **النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج** ، دار النهضة العربية ، دط ، بيروت ، 1979.
- الزركشي بدر الدين، **البرهان في علوم القرآن** ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث ، دط ، القاهرة ، دت.
- السعران محمود ، علم اللغة – **مقدمة للقارئ العربي** ، دار النهضة العربية ، دط ، بيروت ، دت.
- سيبويه أبو بشر عثمان بن قنبر ، **الكتاب** ، تح: محمد عبد السلام هارون ، مكتبة

الخانجي ، ط 03 ،القاهرة ، 1988.

- عمر أحمد مختار ، **البحث اللغوي عند العرب** ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط 06 ، 1988.
- المسدي عبد السلام ، **التفكير اللساني في الحضارة العربية** ، الدار العربية للكتاب ، ط 02 ، تونس ، 1986.
- نهر هادي ، **علم اللغة الاجتماعي عند العرب** ، الجامعة المستنصرية ، ط 01 ، بغداد ، 1988.

7. الهوامش والإحالات:

([1]) – المسدي عبد السلام ، التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب ، ط 02 ، تونس ، 1986 ، ص 26.

([2]) - ابن جني ، الخصائص ، تح: محمد علي النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 03 ، القاهرة ، 1986 ، ج : 01 ، ص 33.

([3]) - ابن خلدون ، المقدمة ، تح: خليل شحادة ، دار الفكر ، د ط ، بيروت ، 2001 ، ص 753.

([4]) - انظر: البهنساوي حسام ، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث ، مكتبة الثقافة الدينية ، دط ، القاهرة ، 1994 ، ص11 وما بعدها.

([5]) - انظر: المرجع نفسه ، ص 13 وما بعدها.

([6]) - انظر: المسدي عبد السلام ، التفكير اللساني في الحضارة العربية ، ص 107 - 117.

([7]) - الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، تح: محمد رشيد رضا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 01 ، 1988. ص 40.

([8]) - عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني في الحضارة العربية ، ص 113.

([9]) - الراجحي عبده ، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج ، دار النهضة العربية ، دط ، بيروت ، 1979 ، ص 55.

([10]) - انظر: المرجع نفسه ، ص 55.

([11]) - انظر: المرجع نفسه ، ص 56 ، 58.

([12]) - البهنساوي حسام ، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث ، ص 28.

([13]) - برجشتراسر قوتهلف ، التطور النحوي للغة العربية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 02 ، 1994 ، ص 11.

([14]) - عمر أحمد مختار ، البحث اللغوي عند العرب ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط 06 ، 1988 ، ص 114.

([15]) - الراجحي عبده ، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج ، ص 143.

([16]) - سيبويه ، الكتاب ، تح: محمد عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، ط 03 ،القاهرة ، 1988 ، ج 01 ، ص 25.

([17]) - انظر: البهنساوي حسام ، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث ، ص 47.

([18]) - المرجع نفسه ، ص 53.

([19]) - المرجع نفسه ، ص 31.

([20]) - بشر كمال ، التفكير اللغوي بين القديم والحديث ، دار غريب ، القاهرة ، دط ، 2005 ، ص 368.

(21) - انظر: السعران محمود ، علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، دط ،دت ،ص311. وهادي نهر ، علم اللغة الاجتماعي عند العرب ، الجامعة المستنصرية ، ط 01 ، 1988 ، ص 187– 189.

(22) - انظر: بشر كمال ، التفكير اللغوي بين القديم والحديث ، ص 369.

(23) - عز الدين بن عبد السلام ، الإمام في بيان أدلة الأحكام ، تح رضوان بن غربية ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ط 01 ، 1987 ، ص 159.

(24) - الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، دط ، دت ، ج:02 ، ص 200.

(25) - سيبويه ، الكتاب ، ج 01 ، ص 343.

(26) - ابن جني ، الخصائص ، ج 01 ، ص 245.

(27) - ابن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، تح: عمر فاروق الطباع ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط 01 ، 1993 ، ص 64.

(28) - محمد حسين آل ياسين ، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ط 01 ، 1980 ، ص 441.